

مساهمة الأسرة الأموية في النهضة العلمية والفكرية بالأندلس (138-422هـ/755-1030م)

The Contribution of the Umayyad dynasty to Scientific and Intellectual Development in Andalusia (138-422A.H/755-1030A.D)

عمارة مختار

AMARA Mokhtar

كلية العلوم الإنسانية، جامعة المدينة، الجزائر، الدراسات التاريخية المتوسطة في العصور الوسطى والحديثة،

Am.karim05@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/10/06 تاريخ القبول: 2020/02/02 تاريخ النشر: 2020/03/30

ملخص: يسعى البحث إلى إلقاء الضوء على مساهمة الأسرة الأموية في نهضة الأندلس الفكرية والعلمية التي امتازت بها خلال القرون الثلاثة من حكم هذه الأسرة الممتد من سنة 138هـ/755م إلى غاية سنة 422هـ/1030م، وطبيعة هذه المساهمة وأشكالها في إثراء ودعم هذه النهضة من خلال موقعها كسلطة سياسية حاكمة وكذلك بمجهودات فردية خاصة، وذلك من أجل استحضار تفاعل النهضة الفكرية مع المحيط السياسي، وتبيان الدور الذي لعبته السلطة السياسية في الإسلام في رعاية العلم وأهله من منطلقات مختلفة صبت جميعها إلى امتياز الحضارة الإسلامية بأكبر مخزون حضاري مادي في تاريخ البشرية.

الكلمات المفتاحية: الأندلس ؛ العصر الأموي ؛ النهضة العلمية ؛ الأسرة الأموية ؛

Abstract:

The research seeks to shed light on the contribution of the Umayyad dynasty to the intellectual and scientific development of Andalusia that characterized it during the three centuries of the ruling of this family from the year 138A.H/755A.D to the year 422A.H/1030A.D, And the nature of this contribution and its forms in enriching and supporting this development through its position as a governing political authority as well as individual private efforts, In order to show the interaction of intellectual development with the political environment, And also demonstrate the role played by the political authority in Islam in fostering science and Intellectual development.

Keywords: Andalusia; the Umayyad dynasty; scientific development; intellectual life

المؤلف المرسل: عمارة مختار، الإيميل: Am.karim05@gmail.com

مقدمة:

امتازت بلاد الأندلس خلال العصر الأموي بازدهار علمي وحضاري كبير ترك بصمته على تاريخ الغرب الإسلامي وتاريخ المسلمين عامة، بل وتاريخ العصور الوسطى ككل، بالرغم من المؤامرات والفتن والدسائس التي تعرضت لها البلاد خلال هذه الحقبة والحروب المتواصلة مع نصارى الشمال، والتي وقف لها الأمويون سدا مانعا حفظ للبلاد وحدتها واستقرارها في فترات طويلة من تاريخهم، وبالرغم من أن مظاهر هذا الازدهار تجلت بوضوح في الأثر المادي الذي خلفه علماء الأندلس الفطاحل الذين أثروا بمنجزاتهم ومؤلفاتهم مختلف جوانب العلم والمعرفة والحضارة، إلا أننا بإهمال الجهود التي قدمتها السلطة السياسية المتمثلة في الأسرة الأموية يعتبر إجحافا في حق هذه الأسرة التي شاركت بدور بارز في رعاية النهضة العلمية الأندلسية خلال حكمهم، وعلى أساس هذا الاعتبار تبدت الحاجة إلى طرح التساؤلات التالية: ماهي أهم مظاهر مساهمة السلطة السياسية في النهضة الفكرية الأندلسية، وهل اكتفت الأسرة الأموية بالمشاركة كسلطة أم كأفراد خارج هذا الإطار، وماهي خلفيات هذا الاهتمام وأسبابه.

1 - المساهمة الأدبية:

1.1. النشأة العلمية:

في مقولة لابن جلجل يوضح بجلاء الدور الذي يكتسبه اهتمام الحكام والملوك في نهضة العلم والفكر في بلدانهم، قائلا: (يظهر الحكماء بظهور دول الملوك الطالبين للحكمة)⁽¹⁾، وفي هذا الصدد أشادت المصادر التي أرّخت لتاريخ الأندلس بالدور الهام الذي قام به الأمويون في رعاية الحركة العلمية، وشغفهم بالعلم ورعايتهم لأهله، هذا الاهتمام نابع بدرجة كبيرة من الخلفية العلمية التي نشأ عليها الأمراء الأمويون، حتى اعتبروا من العلماء والأدباء وعدوا من جملتهم، وقد أجمعت المصادر التي ترجمت لهؤلاء أو تحدثت عن تاريخ الأندلس على الإشادة بحبهم للعلم وتحصيلهم لبعض فنونه ووضع مؤلفات وتصانيف في مختلف هذه الفنون، وقد وصف أكثرهم بحسن قرض

(1) - سليمان بن حسان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ط: 02، تح: فؤاد سيد، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م، ص: 116.

الشعر والإجادة فيه على البديهة مع الفصاحة وحسن الخطابة والتقدم في البلاغة والكتابة منظوماً ومنتورا، خاصة الأمراء الأوائل عبد الرحمن الداخل (138-172هـ/755-788م) وابنه هشام (172-180هـ/788-796م) وحفيده الحكم (180-206هـ/796-821م)⁽²⁾.

لكن منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/821-852م) اتسعت دائرة اهتمامات الأمويين العلمية، وأجادوا إلى جانب علوم الأدب والنحو واللغة علوماً أخرى تمثلت أساساً في علوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث وحتى العلوم القديمة كالفلسفة التي ولع بها عبد الرحمن الأوسط⁽³⁾، بينما أجاد ابنه الأمير محمد (238-273هـ/852-886م) علم الحساب إلى جانب البلاغة والأدب وقرض الشعر حتى اعتبر أوحده قومه في هذا⁽⁴⁾، وقدر لا بأس به من علم الحديث تجلّى في إعجابه بمسند ابن أبي شيبة الذي تصفحه بحضور بقي بن مخلد وجماعة من الفقهاء المنكرين عليه ما فيه حتى طلب نسخه والإحتفاظ به في مكتبته الخاصة⁽⁵⁾، بينما اتجهت اهتمامات الأمير عبد الله (275-300هـ/888-912م) إلى حفظ القرآن وأشعار العرب وأيامها وسير الخلفاء ورواية الشعر وعلوم اللغة⁽⁶⁾.

(2) - ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط: 02، تح: ج.س كولان وليفي بروفينسال، بيروت: دار الثقافة، 1980م، ج: 02، ص: 60، 154؛ علي بن موسى بن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ط: 04، تح: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ج: 01، ص: 39؛ لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ق: 02، تح: ليفي بروفينسال، ط: 02، بيروت: دار المكشوف، 1956م، ص: 10؛ عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المتبدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (د.ط)، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000م، ج: 04، ص: 163؛ مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، ط: 02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، 1989م، ص: 134.

(3) - حيان بن خلف ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكي، (د.ط)، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1994م، ص: 222، 279؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج: 01، ص: 45؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 91؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 04، ص: 167.

(4) - محمد بن عبد الله ابن الأبار، الحلة السرياء، ط: 02، تح: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، 1985م، ج: 01، ص: 119؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 22؛ ابن بسام الشنترنبي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، (د.ط)، بيروت: دار الثقافة، 1997م، ج: 01، ص: 940.

(5) - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (د.ط)، تح: محمد العريان، القاهرة: لجنة إحياء التراث العربي، (د.ت)، ص: 49.

(6) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: - ص: 152 - 154؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج: 01، ص: 120.

ولعل أشهرهم في هذا الميدان هو الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م) الذي يتفق المؤرخون كافة على وصفه بالحكم العالم والأديب المفكر، وأجمعوا على تأكيد علم هذا الخليفة وبراعته في الشعر والأدب والرواية والأنساب، وكان الحكم نفسه واسع الإطلاع دائم المطالعة للكتب، حتى أنه لم يوجد في خزائنه كتاب إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد تكون إلا عنده لعنايته بهذا الشأن⁽⁷⁾، ويزيد ابن الخطيب على هذا في وصفه للحكم المستنصر فيقول: (كان عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ جماعاً للكتب، تجرد لذلك وتهتم به، فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يوقف عنده)⁽⁸⁾.

كما تطالعنا المصادر بالعديد من الشخصيات الأموية التي اشتهرت بالعلم والتزمت بتحصيله وإن لم تتبوأ مركزاً سياسياً في حكم البلاد، بل اتجهت اهتماماتهم إلى تدريس العلم والتأليف في فروعها المختلفة، اشتهر منهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد بن معاوية بن محمد بن هشام بن معاوية بن الأمير هشام بن عبد الرحمن المعروف بابن القط، وكان هذا الأخير من أهل العناية بالعلم والصناعة والنجامة ومعرفة الهيئة⁽⁹⁾.

ومنهم عدد من أبناء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام اهتموا بتحصيل العلم والرواية عن العلماء، هما يعقوب وأخ له يدعى هشام كانا معدودين من أهل العلم والمعرفة بالعربية واللغة، خاصة هشام الذي أكثر من الرواية عن يحيى بن يحيى الليثي⁽¹⁰⁾، بينما جلس عبد العزيز بن حكم بن أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الرضوي للتدريس وسمع منه الناس، وكان عبد

(7) - أحمد بن محمد المقرئ، فنجح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (د.ط.)، تج: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1988م، ج: 01، ص: 395.

(8) - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 41.

(9) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 02، ص: 368.

(10) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 01، ص: - ص: 124 - 126 ؛ ابن حيان، المقتبس، تج: مكي، ص: 164.

العزير أديبا عالما بالنحو والشعر وعلم الكلام، أخذ عن شيوخ عصره مثل قاسم بن أصبغ وعبد الله بن يونس ونظرائهم⁽¹¹⁾.

ومن جلس للتدريس كذلك محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن إسحاق بن عبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بابن الأحمر، عقب عودته من رحلة لطلب العلم ابتدأها سنة 295هـ/907م قادته إلى مصر ومكة وبغداد والكوفة والبصرة وسمع من أعلام علمائها، بعدما أخذ عن مشايخ الأندلس مثل أصبغ بن مالك وعبيد الله بن يحيى وغيرهم، وعاد إلى الأندلس سنة 325هـ/936م وبدأ الناس بالسماع منه والرواية عنه⁽¹²⁾.

ومن أدباء الأسرة الأموية ذوي البلاغة والتبحر في علوم العربية والنحو أبو الحكم المنذر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المنذر بن عبد الرحمن بن معاوية، حتى أنه كان يعرف بالذاكرة لأنه كان كثير المذاكرة لعلم النحو رفقة خلانه وأفراد أسرته وغيرهم من طلبة العلم والأدب⁽¹³⁾.

بينما ترك بعض أعلام هذه الأسرة تراثا أدبيا كان مرجعا للعديد من المؤلفين المتأخرين عنهم، واشتهر في هذا المقام المؤرخ معاوية بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد ابن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، له العديد من المؤلفات التاريخية منها كتاب في تاريخ الأسرة الأموية بالأندلس عول عليه ابن حيان كثيرا في كتابة تاريخه، وله تأليف آخر في نسب العلويين وغيرهم من قريش سماه ب (التاج السني في نسب آل علي)⁽¹⁴⁾، كما وضع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر تصانيف عديدة تدل على اتساع علمه، وقد كان فقيها شافعيًا وشاعرا وإخباريا، منها كتاب (العليل والقتيل في أخبار ولد العباس)، وكتاب (المسكنة في فضائل بقي بن مخلد)⁽¹⁵⁾.

(11) - عبد الله بن محمد ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ط: 02، تح: عزت العطار الحسيني، القاهرة: مطبعة المدني، 1988م، ج: 01، ص: 322.

(12) - ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 70، 71.

(13) - محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ط: 02، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ص: 285، 286.

(14) - محمد بن عبد الله ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ط: 01، تح: بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، 2011م، ج: 02، ص: 416.

(15) - ابن الأبار، الحلة السبراء، ج: 01، ص: 201، 206؛ ابن الأبار، التكملة، ج: 03، ص: 11، 12؛ ابن سعيد، المصدر السابق، ج: 01، ص: 187.

وهذا يعود دون شك إلى النشأة العلمية التي حرص عليها الأمراء والخلفاء الأمويون، واهتمامهم الشديد بتربية أولادهم وأولياء عهدهم وتلقينهم منذ الصغر على أيدي مشاهير علماء عصرهم، وكان لهذه النشأة أثر في تشكيل سلوكهم تجاه الحركة الفكرية والعلمية في الأندلس، ونجد من أشهر من أدب أبناء الأمراء الأمويين الفقيه المالكي الغازي بن قيس (199هـ/814م) الذي أدب أبناء هشام بن عبد الرحمن الداخل وأبناء الحكم بن هشام⁽¹⁶⁾، كما اتخذ عبد الرحمن الأوسط الفقيه عثمان بن المثني (ت273هـ/868م) مؤدبا لأولاده، وكان الأخير قد صقل معارفه في المشرق وأدخل العديد من الكتب المشرقية، وغيره من وجوه المؤدبين وأجرى عليهم الأرزاق السنوية والنفقات الشهرية⁽¹⁷⁾.

كما نجد أن عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) قد تأدب على يد كبار علماء عصره مثل الفقيه المحدث قاسم بن أصبغ بن محمد (340هـ/951م) الذي سمع منه كثيرا من كتب ابن قتيبة، وهشام بن الوليد الغافقي (ت317هـ/929م) الذي كان عالما بالنحو والأدب، وكذلك ابنه الحكم وإخوته⁽¹⁸⁾، وكلف بتأديب أبنائه محمد بن إسماعيل النحوي (ت331هـ/942م) الذي كان عالما بالنحو والحساب لا يتقدمه أحد في ذلك⁽¹⁹⁾، ولم يكتف الحكم المستنصر بهذا بل استقدم إلى قرطبة أعلام وفقهاء ذاع صيتهم في الأندلس أمثال زكريا بن خطاب الكلبي من أهل تطيلة، الذي سمع منه أكثر رواياته خاصة كتاب النسب للزيير بن بكار وموطأ مالك رواية عن أبي المصعب الزهري، كما سمع الحكم المستنصر من سعيد بن جابر بن موسى الكلاعي الإشبيلي (ت325هـ/936م) وكان الأخير قد كتب في رحلته وسمع من كبار علماء المشرق أمثال أحمد بن شعيب السبئي وعلي بن سعيد الرازي وغيرهم، وسمع من فتح بن محمد الأنصاري الطليطلي (ت364هـ/974م) وغيرهم كثير⁽²⁰⁾.

(16) - الزبيدي، المصدر السابق، ص: 255.

(17) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 346؛ ابن حيان، المقتبس، تح: مكي، ص: 383، 384.

(18) - ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 407؛ ج: 02، ص: 171.

(19) - المصدر نفسه، ج: 02، ص: 54.

(20) - نفسه، ج: 01، ص: 176، 177، 196، 197، 395.

وجريا على عادة أسلافه وكل الحكم المستنصر بتعليم ابنه هشام المؤيد جهابذة زمانه في الفقه والحديث وعلوم اللغة وغيرها، إذ تولى أبو بكر الزبيدي (ت379هـ/989م) تعليم الأمير هشام اللغة العربية وآدابها⁽²¹⁾، وتلقى الفقه والحديث على يد الراوية يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي (ت367هـ/977م) أرفع مسندي الحديث في وقته بقرطبة، كما تلقى والده من قبل موطأ مالك على يد أحمد بن مطرف المعروف بابن المشاط (ت352هـ/963م) وجدته الناصر الذي سمع موطأ مالك من عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي (ت298هـ/910م) الذي روى الموطأ عن أبيه يحيى الذي سمعه من مالك بن أنس⁽²²⁾، بالإضافة إلى العديد من الأدباء والعلماء ممن أدبوا في قصور الخلفاء⁽²³⁾.

2.1. مجالسة العلماء:

بالرغم من مشاغل السياسة والحرب والجهاد وتدبير أمور الدولة إلا أن الأمراء الأمويين حرصوا على تخصيص جزء من أوقاتهم لمجالس العلم والأدب ونحوهما، واشتهرت بالخصوص مجالس هشام بن عبد الرحمن الداخل قبل توليه الحكم وبعده، حيث كان دائم المذاكرة لفنون العلم بمحضر علماء عصره ورجال دولته، وقد تميز عن إخوته في هذا الجانب ما رشحه لخلافة والده على الرغم من تقدم أخيه سليمان عليه في السن⁽²⁴⁾.

وجعل عبد الرحمن الأوسط للعلماء والفقهاء والأدباء مكانة عالية ومقاما ساميا بين رجال الدولة وأعيانها⁽²⁵⁾، وكان أقربهم إليه وأخصهم به الفقيه المالكي يحيى بن يحيى الليثي (ت234هـ/848م) الذي كان يخلو به عبد الرحمن الأوسط في أحيان كثيرة ويشاوره في بعض

(21) - نفسه، ج:02، ص:92.

(22) - ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، (د.ط)، تح: عبد الرحمن علي حجي، بيروت: دار الثقافة، 1965م، ص ص: 133، 134، 216، 217.

(23) - الزبيدي، المصدر السابق، ص ص:282، 284، 298، 299، 303، 304، 305؛ محمد بن حارث الحشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، (د.ط)، تح: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991م، ص ص:336، 341.

(24) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج:01، ص:42؛ المقري، المصدر السابق، ج:01، ص:334.

(25) - حيان بن خلف ابن حيان، كتاب المقتبس، السفر:02، ط:01، تح: محمود علي مكي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003م، س:02، ص ص:298، 299.

أموره⁽²⁶⁾، بينما حذى ابنه الأمير محمد طريقة مثلى في تقريب العلماء وإكبارهم حيث جعل من بعضهم مستشارين خاصين يجتمع بهم ويستشيرهم، وحذى حذوه في هذا الأمر والخلفاء من بعده⁽²⁷⁾، وكان الأمير عبد الله لا يخلو في أكثر أيامه من مجالسة وزرائه ووجوه دولته بمحضر من علماء عصره، ويخوض معهم في الأخبار والعلوم إذا انقضى من تدبير أمور الدولة⁽²⁸⁾.

أما أعظمهم شأنًا وأكثرهم ذكرا إذا ذُكر العلم والفكر في الأندلس فهو الحكم المستنصر لما كان له من مبادرات جلييلة في رعاية النهضة الفكرية الأندلسية والمشاركة فيها بعلمه وماله، وكان من أهل الدين والعلم راغبا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم باحثا عن الأنساب، مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروي عنهم، وكان من أكثر الحكام رغبة في اقتناء الكتب وإثرائها، أفاء على العلم ونوّة بأهله ورعّب الناس في طلبه، ووصلت عطايه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه⁽²⁹⁾، كما فتح الحكم المستنصر أبوابه لأهل العلم وقدر لهم الرواتب الجلييلة، واستوزر جماعة من أهل الأدب اشتهر منهم الوزير جعفر بن عثمان المصحفي (372هـ/983م)، وأبو بكر الزبيدي النحوي صاحب شرطته⁽³⁰⁾.

ولم يكن الحكم في هذا استثناء أو ظاهرة فريدة بين حكام بني أمية في الأندلس، ذلك أن هؤلاء درجوا منذ تأسيس دولتهم على يد عبد الرحمن الداخل على الاهتمام بالعلوم والآداب، واجتهدوا دائما في إحاطة أنفسهم وإغناء مجالسهم بأفاضل الناس وعلمائهم ومحدثيهم، وما قصر واحد منهم في إغناء قصره بالكتب والمصنفات، ولم يتخلف أحد منهم مهما كانت مشاغله السياسية والاقتصادية عن رعاية العلوم والآداب وعن السعي لإثراء القصر بأفضل المؤلفات يوتي

(26) - ابن سعيد، المصدر السابق، ج: 01، ص: 46.

(27) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 259، 260؛ محمد بن الحارث الخشني، قضاة قرطبة، ط: 02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب العربي بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، 1989م، ص: 33.

(28) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: - ص: 152 - 154؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 01، ص: 120.

(29) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 01، ص: 200، 201.

(30) - محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، ص

بها من المشرق كما سائر المناطق الأندلسية، وأعطت ثمارها بصورة كبيرة وفعلية في عهد الحكم المستنصر وما بعده⁽³¹⁾.

وقد اتصف المنصور بن أبي عامر بنفس صفات الخلفاء الأمويين بالأندلس بعدما صار الاهتمام بالعلم وأهله عادة جارية في بلاط الأمويين، فسار على نهجهم في حب العلم وتقريب العلماء وإكرامهم⁽³²⁾، حيث أنه ورد إلى قرطبة شابا، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث على يد كبار علمائها مثل أبو علي القالي وأبو بكر بن القوطية وأبو بكر بن معاوية القرشي راوية النسائي وتميز في ذلك، وشب على حب العلوم وإيثار الأدب مفرطاً في إكرام من نُسب إلى شيء من ذلك، وكان له مجلس كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة⁽³³⁾.

والملاحظ بعد سرد ما سبق أن الحكام الأمويين بالأندلس قد درجوا منذ عهد عبد الرحمن الداخل على الاهتمام بالعلوم والآداب، واجتهدوا دائماً على إحاطة أنفسهم وإغناء مجالسهم بأفاضل الناس وعلمائهم، ولم يتخلف واحد منهم مهما كانت مشاغله السياسية والاقتصادية عن رعاية العلوم والآداب والأخذ بحظ منها.

2 - المساهمة المادية:

من عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية التشجيع والدعم الذي كان الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال المجتمع يسبقونهما على أهل العلم وتوفير ما يمكنهم من مواصلة التدريس والبحث والتأليف، وفيما يلي أمثلة على الجهود التي بذلها الأمويون لتشجيع الحركة العلمية في الأندلس:

1.2. تشجيع الإنتاج العلمي:

اتجهت عناية الأمويين إلى تشجيع العلماء على التدريس والتأليف وتوفير الظروف المناسبة لهذا الغرض، وشاع استقدام العلماء المشهورين إلى الحاضرة قرطبة لتعم الفائدة من علمهم، حيث استقدم الأمير عبد الله بن محمد سعيد بن خمير (ت301هـ/913م) إلى قرطبة للتدريس في جامعها بعدما قدم من رحلته المشرقية، فكان يجلس في المسجد الجامع ويتحلق فيه ويفتي فيه وسمع

(31) - عبد المجيد نعنعي، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية، (د.ت)، ص:408.

(32) - ابن خلدون، المصدر السابق، ج: 04، ص: 189.

(33) - الحميدي، المصدر السابق، ص: 78؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 257؛ عبد الواحد المراكشي، المصدر

السابق، ص: 72، 75، 83.

منه كثير من طلبة العلم وأخذوا عنه، كما اهتم عبد الرحمن الناصر باستقدام خيرة علماء الأندلس إلى حضرته للاستفادة من علمهم، ومن أشهر من استقدمهم الفقيه وهب بن مسرة (ت346هـ/957م) وسمع الناس منه كثيرا من رواياته كالمدونة ومسند بن أبي شيبة وغيرها⁽³⁴⁾. واستقدم الحكم المستنصر إلى قرطبة كل من ذاع صيته من العلماء ليستفيد الناس من مجالس علمه، حيث استدعى محمد بن عيسى بن رفاعة (ت337هـ/948م) إلى قرطبة سنة 336هـ/947م بعد قدومه من المشرق وأكرمه وأوسع عليه وسمع منه، وأذن للناس في الاختلاف إليه والأخذ عنه، ورتب له حلقة في مسجد الزهراء للسمع، وقد اجتمع إليه المغات من الناس وأخذوا عنه⁽³⁵⁾.

ويبدو أن اهتمام الحكم المستنصر لم يكن منصبا على علم واحد، إذ أبدى اهتمامه ورعايته لكل فنون المعرفة ومنها الطب، إذ أقام بالقصر خزانة للطب لم يكن مثلها بالأندلس، وجعل الطبيب أحمد بن يونس الحرائي مشرفا عليها، ورتب لها اثنا عشر فتي من الصقالبة لتحضير الأدوية وما شاكلها بإشراف من الطبيب الحرائي، وأباح أن يمنح منها للمرضى والفقراء حاجتهم من الأدوية⁽³⁶⁾.

ونظرا للرعاية الكبيرة التي أولاهها الحكم المستنصر للعلم وأهله حتى عرف براعي النهضة العلمية في بلاده تسارع العلماء إلى إهدائه مؤلفاتهم تيمينا للتشجيع الذي لاقوه من قبله، فألف له الخشني كتاب قضاة قرطبة بأمر منه وهولا يزال وليا للعهد⁽³⁷⁾، وألف له أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج كتاب الحدائق في أشعار الأندلسيين⁽³⁸⁾، بينما تولى الزبيدي اختصار كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي وأجزل له الحكم المستنصر المكافأة على هذا⁽³⁹⁾، كما ألف له إسحق بن سلمة كتابا في أخبار الأندلس، وكان الحكم قد اختاره لهذه المهمة لعنايته وحفظه لأخبار أهل

(34) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 194، 195؛ ج: 02، ص: 162.

(35) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 178؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 02، ص: 81.

(36) - ابن جلجل، المصدر السابق، ص: 113.

(37) - الخشني، قضاة قرطبة، ص: 23، 24.

(38) - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 01، ص: 39.

(39) - ابن حيان، المقتبس، تح: حجي، ص: 133، 134.

الأندلس⁽⁴⁰⁾، وفي نفس الموضوع ألف خالد بن سعد القرطبي كتابا في رجال الأندلس للمستنصر بالله، أخذ منه ابن الفرضي العديد من التراجم⁽⁴¹⁾، وألف له محمد بن يوسف الوراق كتابا ضخما في مسالك إفريقية وممالكها⁽⁴²⁾.

وصنع كبار علماء وأدباء قرطبة مع المنصور بن أبي عامر ما صنعوه مع الحكم من قبل، فأهدوه كتبهم التي ألفوها، حيث أهداه صاعد البغدادي كتاب الفصوص فكافأه عليه المنصور بخمسة آلاف دينار، وكان المنصور يخصص عددا من الكتب بعنايته ويجب أن يقرأ فيها كل ليلة منها كتاب الجواس لصاعد البغدادي وغيره⁽⁴³⁾، وألف له حسان بن مالك بن أبي عبدة كتاب ربيعة وعقيل على مثال كتاب ابن السري سهل بن أبي غالب في الأنساب الذي ألفه للرشيد⁽⁴⁴⁾، كما انبرى أحمد بن عبد الملك المعروف بابن المكوي الإشبيلي رفقة الفقيه أبو مروان المعيطي بتأليف كتاب في أقاويل مالك بن أنس بأمر من المنصور بن أبي عامر نظرا لهتمته وعنايته بالعلوم⁽⁴⁵⁾.

2.2. الإنفاق على العلماء وطلبة العلم:

في تلك الأزمنة كان إكرام العلماء وقضاء حوائجهم وتشجيعهم بالإعانات المالية من الأمور الجارية في محافل العلم والأدب، ولما كان الأمراء والخلفاء على قدر واسع من الثقافة والمعرفة فما بخلوا بما عندهم من دولة مستقرة وخزينة عامرة لرعاية الحركة العلمية التي أخذت منذ عهد عبد الرحمن الأوسط انطلاقة حقيقية وظهرت طلائعها بوضوح، والواقع أن الإمكانيات المادية ما كانت تنقصه لدفع هكذا حركة حضارية بقوة نحو التقدم، فقد ترك له والده الحكم خزينة عامرة بالمال، ومصادر دخل على درجة كبيرة من الدقة والتنظيم بلغت وارداتها السنوية حسب بعض المصادر

(40) - ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 89.

(41) - المصدر نفسه، ج: 01، ص: 155.

(42) - الحميدي، المصدر السابق، ص: 97.

(43) - خوليان ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، تر: الطاهر أحمد مكي، ط: 02، القاهرة: دار المعارف، 1994م، ص: 174.

(44) - الفتح بن محمد ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح النانس في ملح أهل الأندلس، ط: 01، تح: محمد علي شوابكة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م، ص: 212.

(45) - الحميدي، المصدر نفسه، ص: 133.

أكثر من ألف ألف دينار أي أكثر من مليون دينار ذهبي⁽⁴⁶⁾، بينما بلغت في عهد عبد الرحمن الناصر وبالتحديد سنة 340هـ/951م حسب ابن حوقل الذي كان متواجدا بالأندلس في هذه الفترة حوالي عشرين ألف ألف دينار ذهبي، أي حوالي عشرون مليون دينار ذهبي⁽⁴⁷⁾، ما جعل الدولة الأموية في هذه الفترة من أغنى دول البحر المتوسط، وهذا الغنى كان له انعكاس على ازدهار الأندلس الحضاري.

وعلى الرغم من وجود نصوص متناثرة في ثنايا المصادر تنبئ عن بعض الاتجاهات التي كانت سائدة آنذاك نحو طلبه العلم والعلماء، إلا أنها على قلتها لا تكفي للجزم بحقيقة وكيفية وطرق تمويل التعليم في الأندلس، فقد ذكر عن هشام بن عبد الرحمن أنه من شدة رغبته في تشجيع طلبه العلم وعمارة المساجد كان يبعث صرر الأموال في الليالي إلى المساجد لتعطي لمن وجد بها في ذلك الوقت⁽⁴⁸⁾، كما التزم الأمير عبد الرحمن الأوسط إكرام أهل العلم من الفقهاء والأدباء والشعراء وأدى منازلهم وأجزل عطاياهم وأقطعهم الأراضي وبنى لهم الدور⁽⁴⁹⁾، وكان الأمير المنذر بن محمد (273-275هـ/886-888م) على رغم قصر عهده سخيا مكرما لأهل العلم، مقربا ومكرما لكل من أخذ بحظ من علم أو أدب⁽⁵⁰⁾.

كما أكرم الحكم المستنصر وفادة العلماء الطارئین على الأندلس مثل الحكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ القيرواني الذي وفد إلى الأندلس في أول ولاية المستنصر بعد رحلته المشرقية، فوصله الحكم وأكرمه وأجرى عليه العطاء في ديوان قریش إلى أن مات، كما عرض على حباشة بن حسن اليحصبي القيرواني جراية من أجل أن يجلس للفتيا، وقرب مكانة عبيد الله بن عمر القيسي الشافعي القادم من بغداد وأنزله وتوسع له في الجراية إلى أن مات سنة 360هـ/970م،

(46) - ابن سعيد، المصدر السابق، ج: 01، ص: 46؛ المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 348.

(47) - أبو القاسم بن حوقل النصبي، صورة الأرض، (د.ط.)، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992م، ص: 107.

(48) - مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص: 110؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 66.

(49) - ابن حبان، المقتبس، السفر: 02، تح: مكى، ص: 298؛ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، (د.ط.)،

تح: محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، (د.ت.)، ج: 02، ص: 361.

(50) - محمد بن عمر ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ط: 02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع

دار الكتاب اللبناني بيروت، 1989م، ص: 113.

كما أكرم المستنصر وفادة الفقيه الشافعي محمد بن أحمد البغدادي (ت373هـ/983م) الذي قدم الأندلس سنة 361هـ/971م وتوسع له في الجراية، واستقدم الحكم المستنصر محمد بن عيسى بن رفاعة إلى قرطبة كما أسلفنا بعد قدومه من المشرق وأوسع عليه الجراية وسمع منه⁽⁵¹⁾، ورفع منزلة العديد من الوافدين إلى الأندلس في عهده⁽⁵²⁾، كما أجزل العطاء للمؤلفين على مؤلفاتهم وتصانيفهم في كل العلوم، وبلغت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه⁽⁵³⁾.

كما حظي أبو علي القالي البغدادي بمكانة مرموقة من الحكم ووالده عبد الرحمن الناصر، حيث تلقاه الحكم بكل جميل وقربه منه وبالغ في إكرامه، وقيل أنه هو من كاتبه ورغبه في الوفود إلى قرطبة ونشر علمه بها، وكان الحكم يحظه على التأليف وينشطه له بوسع العطاء⁽⁵⁴⁾، كما أكرم المنصور بن أبي عامر وفادة الأديب اللغوي صاعد بن الحسن البغدادي وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه، وقد ألف للمنصور كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي وغيره⁽⁵⁵⁾.

وفي مستعرض حديث ابن عذارى عن منجزات الحكم المستنصر ذكر أنه اتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل رضى من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وبقائها في كل رضى من أرباض المدينة⁽⁵⁶⁾.

كما كان هناك أوقاف خصصت لهذا الغرض، حيث حبس الحكم المستنصر حوانيت السراجين بقرطبة على معلمي الكتابات التي افتتحت لتعليم أولاد الفقراء والمساكين⁽⁵⁷⁾، وشارك الخواص بما قدروا عليه في هذا الميدان، وانتقل الأمر من الإنفاق المالي إلى تحبيس الكتب أو الدور وما له علاقة بالعلم على أهله وطلابه، حيث قام قاسم بن حامد الأموي بتحبيس كتبه بعد

(51) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 178.

(52) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 143، 153، 295، 297، 361؛ ج: 02، ص: 95، 116، 117.

(53) - ابن حيان، المقتبس، تج: حجي، ص: 133، 134؛ ابن الأبار، الحلة السيرة، ج: 01، ص: 201، 202.

(54) - الحميدي، المصدر السابق، ص: 165، 166.

(55) - المصدر نفسه، ص: 240.

(56) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 240، 241.

(57) - المصدر نفسه، ج: 02، ص: 240، 241.

وفاته⁽⁵⁸⁾، وجعل أصبغ بن مالك (ت299هـ/911م) داره بقرطبة حبسا على القراء والمتنسين ومن كانت رغبته العلم⁽⁵⁹⁾، كما أوصى موسى بن سليمان الأموي (ت293هـ/905م) بتحسيس كتبه لأهل العلم وكان كثير الجمع للكتب⁽⁶⁰⁾، وحذا حذوه العديد من العلماء حيث حبس يحيى بن عبد العزيز الخراز كتبه على أهل العلم⁽⁶¹⁾، وكانت كتب هارون بن سالم القرطبي (ت238هـ/852م) موقفة عند أحمد بن خالد (ت322هـ/934م)⁽⁶²⁾.

3.2. إنشاء مراكز العلم:

المساجد:

تركز التعليم في ذلك العصر بشكل أساسي في المساجد، إذ كانت نواة المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، واتخذت من طرف المسلمين في تسيير شؤونهم العامة والخاصة، وأظهر مثال على هذا استخدام المسلمين لمساجدهم دورا للقضاء والتعليم، وكانت تقام بها حلقات العلم والدرس والفتوى وغيرها في جميع أمصار البلاد الإسلامية في مختلف صنوف العلم والمعرفة الدينية والدنيوية⁽⁶³⁾.

ونظرا لهذه الأهمية الكبير للمساجد في حياة المسلمين اتجهت عناية الأمويين إلى إنشاء المساجد الجامعة في الأندلس وأسرفوا في الإنفاق عليها وتهيئتها وتوسيعها، والتي اضطلعت بأدوار طلابية في مجال التعليم، وتشهد المصادر المختلفة التي أرخت لهذه الفترة بالدور البارز الذي قدمه الأمويون في هذا المجال بدءا بمؤسس الدولة عبد الرحمن الداخل الذي أقام أسس مسجد قرطبة

(58) - ابن الفريسي، المصدر نفسه، ج:01، ص:402.

(59) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص:39.

(60) - المصدر نفسه، ص:189.

(61) - نفسه، ص:374.

(62) - ابن حبان، المقتبس، تح: مكّي، ص:221.

(63) - محمد عبد الوهاب خلاف، وثائق في شؤون العمران في الأندلس المساجد والدور، ط:01، القاهرة: المركز العربي الدولي للإعلام، 1983م، ص:64، حسين مؤنس، المساجد، (د.ط.)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م، ص:30.

الجامع الذي تداول خلفاؤه من بعده على توسعته والزيادة فيه حتى غدى في أواخر أيامهم من أهم معالم الحضارة الإسلامية ليس في الأندلس وحدها بل في ربوع العالم الإسلامي كله⁽⁶⁴⁾.

وفي خضم النشاط العلمي الذي عرفته الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط كثر بناء المسجد في كامل الأندلس، وتنافس رجال القصر ونساؤه في هذا، وتوسعن في الإنفاق على أبواب الخير والعلم، وأقمن مساجد عديدة في مناطق مختلفة من الأندلس كمسجد طروب ومسجد فخر ومسجد الشفاء ومسجد متعة ومسجد البهاء ومسجد شعاع وغيرها⁽⁶⁵⁾.

كما ذكر ابن عذارى أن عدد مساجد قرطبة وحدها بلغ في عهد عبد الرحمن الناصر ثلاثة آلاف مسجد⁽⁶⁶⁾، بينما يذكر ابن الدلائي أن عدد مساجد قرطبة بلغ أربعمئة وإحدى وتسعون مسجداً⁽⁶⁷⁾، ولعل تضارب تقديرات المؤرخين والرواة راجع إلى اختلاف الفترات الزمنية التي عاين فيها كل واحد منهم قرطبة، ولا يبدو لنا أن عدد مساجد قرطبة الذي بلغ أكثر من ثلاثة آلاف مسجد إبان ازدهارها عدد مبالغ فيه، إذ كان في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة أكثر من ثلاثين ألف مسجد⁽⁶⁸⁾، خاصة أن قرطبة في القرن الرابع هجري كانت أعظم مدينة بالغرب الإسلامي وليس به من يشابهها لا في المغرب ولا الشام ولا مصر حسب وصف ابن حوقل الذي زارها سنة 337هـ/948م، حيث ذكر له بعض المرتحلين إلى بغداد أنها كأحد جانبي بغداد⁽⁶⁹⁾، وفي هذا ما يعزز صحة كلام ابن عذارى حول مساجدها.

وكان المسجد في بلاد الأندلس مثل غيره من البلاد الإسلامية في ذلك العصر المركز الأول والأهم للعلم لعدم وجود مدارس مختصة لهذا الغرض بعد، وقد ذكر المقري أن الأندلسيين كانوا

(64) - السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، (د.ت)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت)، ص: 12، 13.

(65) - ابن حيان، المقتبس، س: 02، تح: مكّي، ص: 287، 288، 304، 305؛ ابن الأبار، التكملة، ج: 04، ص: 122، 223، 224، 229.

(66) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 232.

(67) - أحمد بن عمر ابن الدلائي، نصوص عن الأندلس، (د.ط)، تح: عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، (د.ت)، ص: 124.

(68) - أحمد بن إسحق البغدادي، البلدان، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص: 43.

(69) - ابن حوقل النسبي، المصدر السابق، ص: 104، 107، 108.

يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة⁽⁷⁰⁾، وقد كان العدد الكبير للمساجد المتواجدة في بلاد الأندلس دافعا حقيقيا للحركة العلمية، لقربها من مراكز السكان الذين لا يجدون مشقة في التنقل لطلب العلم إلا للمراحل المتقدمة، وهو إسهام مباشر من الدولة في تهيئة قسم من أماكن التعليم في ذلك الوقت، ومما هو معروف أن المسجد الواحد كان يضم العديد من حلق العلم والدراسة في وقت واحد، ما يشير إلى كثرة وتنوع هذه الحلق وشموليتها

ولما كانت قرطبة حاضرة الخلافة وموطن الخليفة ودار الملك كانت كذلك قطب الرحى في النشاط العلمي، فقط حظي جامعها بشهرة علمية لا تدانى، حيث ضم بين أروقة حلقات العلم والدرس، وقد بالغ الأمويون في الإنفاق عليه وتوسعته وتهيئته حتى صار قبلة للعلماء وطلاب العلم، ومما يؤكد هذا الطابع العلمي لجامع قرطبة أن المصادر التي تناولت تاريخ الأندلس وتراجم علمائه تشير إليه وإلى جامع الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر باعتبارها أحد أهم المراكز العلمية التي يجتمع فيها العلماء ويفد إليها طلاب العلم بالأندلس، فقد كان الأديب اللغوي أبو علي القالي يجلس في جامع الزهراء كل يوم خميس ويجتمع إليه طلاب العلم ليكتبوا عنه كتاب الأمايي إملاء⁽⁷¹⁾، ولما رجع أبو مروان الطنبلي من رحلته المشرقية إلى الأندلس واستقر بقرطبة وجلس للإملاء اجتمع إليه خلق كثير قدر عددهم بألف طالب، ولا يسع هذا العدد إلا مسجد قرطبة أو الزهراء في ذلك الوقت⁽⁷²⁾، وغيرهم العديد من حلق العلماء المشهورين في شتى مجالات العلم والمعرفة الذين اتخذوا من مسجد قرطبة مركزا لنشر العلم والتدريس والإملاء⁽⁷³⁾.

وكانت المساجد بقرطبة مكانا للتعليم والدراسة لجميع الفئات والأعمار، حيث كان بها حلق لتعليم الصبيان⁽⁷⁴⁾، وبالإضافة إلى حلق العلم كانت المساجد تضم مجالسا للمناظرة التي كانت

(70) - المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 220.

(71) - خلف بن عبد الملك ابن بشكوال، الصلة، ط: 01، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، 1989م، ج: 03، ص: 942.

(72) - الحميدي، المصدر السابق، ص: 285.

(73) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 117؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 211، 222، 223، 252، 262، 282؛ ج: 02، ص: 191؛ ابن بشكوال، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 140.

(74) - الحميدي، المصدر نفسه، ص: 102.

تعقد بحضور العلماء والمفتين⁽⁷⁵⁾، كما زخرت بمجالس الأدب ورواية الشعر وما شابه ذلك⁽⁷⁶⁾، وحفلت كذلك المساجد بمجالس المؤدبين، وحلق الزهاد والصلحاء⁽⁷⁷⁾.

ولم يكن تشييد المساجد حكرا على الحكام، إذ شارك كل من في مقدوره بناء المساجد في هذا، إذ تذكر المصادر أن نساء القصر شاركن في هذا، كما شارك العديد من أهل الأندلس في بناء المساجد، ومن أشارت إليهم المصادر غانم بن الحسن الذي ابنتى مسجدا في إشبيلية، وأبو شيبية القاضي الذي ابنتى مسجدا جامعا في إستيجة⁽⁷⁸⁾.

وإذا كان مسجد قرطبة والزهراء مثلا عن مساجد قرطبة التي بلغت ثلاثة آلاف مسجد حسب رواية ابن عذارى، فإن مساجد المدن والخواضر الأندلسية الأخرى لم تتخلف عن هذا الركب، إذ كانت مساجد المدن الأندلسية الأخرى مثل إشبيلية وطليطلة وشاطبة ومرسية وبلنسية وبجاية وإستيجة وبطليوس وغيرها قد شاركت في النشاط العلمي الأندلسي هي الأخرى، وضمت بين أروقتها حلق العلم والدرس مثل قرينتها بقرطبة⁽⁷⁹⁾.

المكاتب أو الكتاتيب:

امتازت هذه المكاتب بكونها مراكز تعليم أولية مخصصة للصبيان بدرجة كبيرة، وقد اتخذ الحكم المستنصر خطوات جديدة في تنظيمها في مسعاه لتعميم التعليم على مختلف طبقات المجتمع، حيث أشرنا أنه اتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ريبض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، ووزعهم على سبعة وعشرين مكتبا منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وبقية في كل ريبض من أرباض المدينة، وخصص لهذا الغرض عائدات حوانيت السراجين بقرطبة وأوقفها على معلمي هذه الكتاتيب⁽⁸⁰⁾.

(75) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 26، 216، 363؛ ابن حيان، المقتبس، تح: مكي، ص: 226؛ ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 77؛ خلاف، المرجع السابق، ص: 63، 64.

(76) - الخشني، قضاة قرطبة، ص: 149.

(77) - الزبيدي، المصدر السابق، ص: 290؛ الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 227؛ ابن بشكوال، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 281.

(78) - الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 292، 336.

(79) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 86، 197؛ ج: 02، ص: 131؛ وانظر أيضا: سعد عبد الله صالح البشري، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، الرياض: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1997م، ص: 141.

(80) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 249.

كما توجد إشارات في تراجم الرجال تشير إلى وجود الكتابات قبل عهد المستنصر، وكان يتولاها مجموعة من المعلمين من ذوي المستوى العلمي الحسن، منهم حبيب بن أحمد بن إبراهيم المعلم (ت337هـ/948م)، ومحمد بن أحمد الزهري (ت325هـ/936م) الذي كان يجتمع إليه أهل الحسبة والمعلمون ويقرأون عليه⁽⁸¹⁾، وقد كان بقرطبة وغيرها من الأقاليم عدد من الكتابات المنتشرة في ربوعها تضم مؤدبين ومعلمين منهم من اختص في الحساب ومنهم من اختص بالعربية ومنهم بقراءة القرآن وكانوا يعرفون بمؤدبي الكتاب⁽⁸²⁾.

كما يوجد في تراجم ابن الفرضي إشارات إلى وجود التعليم كمهنة اختص بها بعض الناس في ق03هـ/09م⁽⁸³⁾، حيث يميزهم بصفة المعلم عند ذكر أسمائهم، وقد كانوا على درجة كبيرة من العلم وتمكن من أصوله نتيجة تلقيهم العلم من مشاهير علماء عصرهم⁽⁸⁴⁾، ولا ندري إن كانت هذه الكتابات منظمة وممولة من طرف السلطة الأموية كما كان الحال في عهد الحكم المستنصر، وأنه جرى على ما كان سائدا قبله، أم أنه خطى خطوة إيجابية في تعزيز تمويل التعليم ونشره عن طريق مسعاه السابق، وفي كلا الحالتين يبرز بوضوح دور السلطة الأموية في رعاية التعليم والنهضة العلمية في الأندلس.

المكتبات:

(81) - ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 147؛ ج: 02، ص: 47.

(82) - المصدر نفسه، ج: 01، ص: 199، 202، 207، 267، 277، 383، ج: 02، ص: 153.

(83) - لم ينحصر التعليم والتدريس بالمساجد والمكاتب فقط، واقتصروا على ذكر المساجد والمكاتب فقط نظرا لطبيعة الموضوع المتعلق بمساهمات الأمويين في هذا المجال، إذ لو عدنا للمصادر لوجدنا هناك إشارات مهمة تفيد بانتشار مراكز التعليم في مواضع أخرى غير المساجد مثل دور العلماء والذكاكين والمكاتب الخاصة وحتى السجون، ولم يمنع اشتغال بعضهم بمعاشهم على القيام بواجب التدريس، كما كان بعض العلماء على قدر من الثراء يمكنهم من استضافة طلابهم في بيوتهم وحتى الإنفاق عليهم، كما عرف عن بعض النساء ممن نبغن في العلم والأدب عقد مجالس للعلم وحلق للتدريس بالأندلس، كما عرف عن بعضهن حضور حلق السماع= والإملاء، وفي كتاب أخبار الفقهاء للخشني وكتاب تاريخ العلماء لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار ذكر للعديد من النساء المشهورات بالعلم والأدب وغيرها من صنوف العلم. أنظر حول هذا: الخشني، أخبار الفقهاء، ص: 32، 39، 238؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 02، ص: 202؛ الزبيدي، المصدر السابق، ص: 311؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 01، ص: 30، 72، 73، 142، 143؛ ج: 03، ص: 995؛ ابن الأبار، التكملة، ج: 04، ص: 225، 226، 233.

(84) - ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 27.

لما كانت الكتب تمثل بما تحويه من ثمرات الفكر الإنساني وعاء للعلم والمعرفة، ووسيلة مهمة من وسائل نشره وتعميمه وحفظه في أي عصر من العصور وفي أي مجتمع من المجتمعات، لذا فمن الطبيعي أن نقف على مقدار الأهمية العظمى التي أعطيت للكتاب في خضم النشاط العلمي الذي عرفته الأندلس في العهد الأموي، والذي بلغت به درجة رفيعة بين الأقطار الإسلامية. ولا تكاد تختلف أهداف المكتبات وإن اختلف الزمان وتباين المكان، حيث ساهمت جنباً إلى جنب مع بقية المراكز التعليمية كالمسجد والمكتب بالأندلس في النهضة التي عرفتها البلاد، وتبلور دورها في مساندة وتدعيم المناهج الدراسية في هذه المؤسسات، إضافة إلى دورها العلمي، حيث لم يقتصر دور المكتبات الأندلسية وغيرها في مختلف بقاع العالم الإسلامي على التعليم وحسب، بل كانت إلى جانب هذا مركزاً من مراكز البحث والدرس، وكان يقصدها كبار العلماء لعقد الندوات والمناظرات العلمية وغيرها⁽⁸⁵⁾.

نظراً لهذه الأهمية توجهت عناية الأمويين بالأندلس إلى اقتناء نفائس الكتب الموجودة في ربوع المعمورة، وقد برز هذا التوجه بوضوح في عهد عبد الرحمن الأوسط الذي وجه همهته لاقتناء الكتب وحياسة المؤلفات في جميع الفنون، حيث وجه عباس بن ناصح الجزيري إلى العراق في التماس الكتب القديمة وانتساخها وجهزه بالأموال، حيث أحضر الأخير كتاب الزيج والقانون والسند هند⁽⁸⁶⁾ والموسيقى وسائر كتب الفلسفة والحكمة وكتب الطب وغيرها من كتب الأوائل، ويعتبر ابن حيان أن عبد الرحمن الأوسط أول من سمح بدخول هذه الكتب وعرف أهل الأندلس بها⁽⁸⁷⁾.

وبالعودة إلى المصادر يبدو أن نواة المكتبة القرطبية العظيمة التي شاع ذكرها في عهد الحكم المستنصر تعود إلى عصر عبد الرحمن الأوسط، إذ نجد ذكراً لحازن الكتب في القصر في حديث

(85) - حامد الشافعي، الكتب والمكتبات في الأندلس، ط: 01، القاهرة: دار قباء، 1998م، ص: 127، 128.

(86) - هو من أقدم الكتب التي ترجمت من الهندية إلى العربية وقد أخذ منه العرب الحساب والأعداد الهندية المعروفة. أنظر: ابن سعيد، المصدر السابق، ج: 01، ص: 45.

(87) - ابن حيان، المقتبس، س: 02، تح: مكّي، ص: 27؛ محمد الغساني الأندلسي، رحلة الوزير في فتكاك الأسير، تحرير وتقديم: نوري الجراح، ط: 01، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدي للنشر والتوزيع، 2002م، ص: 48.

المصادر عن محنة بقي بن مخلد وما جرى له مع الفقهاء، إذ دعا محمد بن عبد الرحمن الأوسط خازن الكتب وطلب منه أن ينسخ له كتاب ابن أبي شيبة ويجعله في خزانة الكتب⁽⁸⁸⁾.

ثم تشير مصادر أخرى إلى شغف عبد الرحمن الناصر بالعلم والكتب والمصنفات حتى اشتهر هذا الأمر بين ملوك عصره، فأهداه الإمبراطور البيزنطي أرمانوس (قسطنطين السابع) هدية علمية تحوز على رضا ومودته فبعث إليه سنة 337هـ/948م بكتابين من تأليف قدماء اليونان أحدهما كتاب ديسقوريدس في الطب باللغة الإغريقية وهو كتاب في النبات مصورا، والثاني كتاب التاريخ لهروسييس باللاتينية⁽⁸⁹⁾.

وعلى الرغم من ندرة الإشارات في المصادر التاريخية عن دور عبد الرحمن الناصر في إثراء مكتبة القصر، إلا أن بعض الدارسين المحدثين قد نبه إلى دور هذا الخليفة عموما بما وصلت إليه قرطبة في عصره من ازدهار وتطور، حيث تشير زغريد هونكه أن قرطبة في عصر عبد الرحمن الناصر قد احتوت على أكثر من 80 مدرسة وحوالي 20 مكتبة عامة تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب في مختلف العلوم⁽⁹⁰⁾.

وبلغت ذروة الاهتمام بالكتب في الأندلس في عهد الحكم المستنصر الذي لم يعرف شغفه بالكتب حدودا ولا قيودا في جميع أنواع المعرفة والعلوم، وجمع منذ عهد أبيه من المصنفات ما لا يضاهي في العالم الإسلامي، وكان هذا سببا في توجه الناس للاشتغال بالعلوم وحتى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذهبهم حسب وصف صاعد الأندلسي⁽⁹¹⁾.

حيث تذكر المصادر أن الحكم المستنصر وظف وراقين في مختلف ربوع العالم الإسلامي لينسخوا له مختلف التواليف الصادرة في غير بلده وخاصة بالمشرق، وكان له رجال يوجههم

(88) - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 49.

(89) - أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة، عيون الإنباء في طبقات الأطباء، (د.ط.)، تح: نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت)، ص: 493، 494.

(90) - زغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ط: 08، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت: دار الجليل بالإشتراك مع دار الآفاق الجديدة ببيروت، 1993م، ص: 499.

(91) - صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تح: لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912م، ص: 65، 66.

لمختلف الأقطار لشراء جديد المؤلفات، وكان يرأسل أصحاب المؤلفات ويصلهم بالصلوات الجزيلة للحصول على نسخ من كتبهم، حيث يذكر أنه وجه للأصفهاني ألف دينار ذهباً من أجل الحصول على نسخة من كتابه الأغاني، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم⁽⁹²⁾.

ثم رسم الحكم المستنصر في عهده هدفاً لافتتاح مكتبة عظمى وعمارة بقرطبة تكون قبلة لأهل العلم بالبلاد الأندلسية، وانطلق مما كان في خزائن القصر مما اجتمع لدى أسلافه من الأمراء خاصة عبد الرحمن الأوسط ووالده الناصر وأخيه عبد الله الذي انتقلت ملكية كتبه إلى الحكم بعد مقتله، فوجد ثروة طيبة من الكتب كانت نواة وأساس لمكتبة عظيمة نماها الحكم في عهده وأمدّها بذخائر الكتب ونفائس المؤلفات التي كان يرسل في طلبها إلى جميع أصقاع المعمورة، وأصبحت دافعاً ومثلاً بارزاً على الازدهار العلمي والنشاط الفكر في الأندلس، وقد كانت تحوي من الكتب ما يزيد عن الأربع مائة ألف مجلد في شتى العلوم والفنون، وأن عدد كتب الفهارس التي تحتوي على أسماء هذه الكتب فقط بلغ أربعة وأربعين مجلداً⁽⁹³⁾.

ويمكن القول أن القرن الرابع الهجري كان قرن الكتاب بالأندلس، حيث انتشرت المكتبات العامة والخاصة على نطاق واسع نظراً للرعاية الكبيرة التي قدمها الأمويون في هذا المجال، والناس على دين ملوكهم، فظهر شغف كبير لاقتناء الكتب وجمعها بين الأندلسيين على اختلاف مكانتهم الاجتماعية والعلمية⁽⁹⁴⁾، وربما فاق بعضهم ما كان لدى الحكام والأمراء من شغف بجمع الكتب، حيث امتلك بعضهم نسخاً فريدة لتصانيف لم تكن لدى عامة الناس واختص بها في مكتبته⁽⁹⁵⁾، وشاركت نساء الأندلس في الحركة العلمية تعلمًا وتعليمًا ورواية وجمعًا للكتب⁽⁹⁶⁾، ولم

(92) - ابن الأبار، الحلة السرياء، ج: 01، ص: 201، 202؛ المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 386.

(93) - علي بن سعيد بن حزم الأندلسي، جبهة أنساب العرب، تح: ليفي بروفينسال، مصر: دار المعارف، (د.ت)، ص: 92؛ ابن الأبار، الحلة، ج: 01، ص: 201؛ المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 395.

(94) - وصف المقرئ اهتمام أهل الأندلس بجمع الكتب واقتنائها بقوله: (وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال فلان عنده خزان كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به). أنظر: المقرئ، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 462، 463.

(95) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 02، ص: 131، 168؛ الحشني، أخبار الفقهاء، ص: 225؛ ابن الأبار، التكملة، ج: 02، ص: 49، 50.

يفوت أهل الذمة من نصارى ويهود مساية المسلمين في نهضتهم، حيث كان كثير من النصارى واليهود يقرأون شعر العرب وقصصهم ويدرسون ما كتبه الفقهاء والفلاسفة المسلمون، كما اعتنوا بتعلم اللغة العربية وآدابها نظراً لكونها لغة العلم آنذاك، وبدلوا أموالاً طائلة في تأسيس مكتبات لهذا الغرض⁽⁹⁷⁾، فقد كتب مطران قرطبة ألفارو في ق 03هـ/ 09م أن جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم، ويقرأون ويطلعون كتب العرب بولع ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة⁽⁹⁸⁾.

أدى هذا الشغف إلى ظهور منافسة جادة وشديدة بين أهل الأندلس لاقتناء الكتب، وأصبحت هذه علامة من علامات الرفعة والسؤدد، ولم يكن الرجل يستغني عن تأسيس مكتبة في بيته حتى وإن لم يكن على قدر مناسب من المعرفة، وقرأ وصفا شاهداً على ما سبق عند المقرئ على لسان أبي يحيى الحضرمي الرحالة المشهور وجماع الكتب حيث يقول: (...أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغته إلى ما لا يساوي، قال فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بما بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه)⁽⁹⁹⁾.

وتوضح لنا هذه القصة ما كان عليه سوق الكتب في قرطبة من رواج بصورة أفضل من أي وصف آخر له، كما توضح في نفس الوقت أن جمع الكتب واقتنائها لم يكن يُقصد بها العلم

(96) - ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 03، ص: 992؛ علي بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط: 01، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016م، ص: 69.

(97) - خوليان ريبرا، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة: معهد المخطوطات بجامعة

الدول العربية، مج: 05، ماي 1959م، ج: 01، ص: 69، 70.

(98) - نقلاً عن: البشري، المرجع السابق، ص: 115.

(99) - المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 463.

دوماً، بل يقصد به أحيانا الترف والجاه، كما تبين لنا أن كل فئات المجتمع كانت مهمة بجمع واقتناء الكتب.

من أشهر المكتبات الخاصة التي ذاع صيتها في الأندلس في هذا العهد مكتبة القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس (ت402هـ/1011م) الذي جمع من الكتب في أنواع العلوم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، مع ما كان له من سعة الرواية والحفظ والدراية، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائما ورتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياح منه وبالغ في ثمنه، وكانت مكتبته بداره مبنية بأسلوب وشكل بديعين، حيث طليت جدرانها وأبوابها وسقفها وفرشها وستورها ونمازقها باللون الأخضر، قد مألها بدفاتر العلوم ودواوين الكتب التي ينظر فيها، وبهذا كان أنسه وخلوته⁽¹⁰⁰⁾.

ومن عرف بجمع الكتب في أواخر العصر الأموي بالأندلس محمد بن يحيى الغافقي المعروف بابن الموصول (ت433هـ/1041م)، حيث شغف منذ صباه بحب الكتب وجمعها حتى قيل أنه لم يجتمع لأحد بعد الحكم المستنصر ما اجتمع لديه من الكتب، وقد بيعت بعد وفاته بأعلى الأثمان لما احتوته من نواذر المصنفات التي كان بعضها بخط المؤلفين أنفسهم أمثال مصنفات أبو علي القالي⁽¹⁰¹⁾، كما اشتهر غيرهم من العلماء والتجار وطلبة العلم بجمع الكتب وحيارة مكتبة عامرة بالكتب وألوان التصانيف⁽¹⁰²⁾.

ونخلص إلى نتيجة مفادها أن ظهور المكتبات في الأندلس ارتبط بنسبة كبيرة بحركة الإنتاج الفكري التي عرفتها البلاد من حيث الكثرة والتنوع، وهذه الحركة ارتبطت بدورها ارتباطاً وثيقاً بالحياة الفكرية السائدة في البلاد، وأثرها الكبير في توسيع دائرة التأليف وإحداث زيادة متنامية في حركة النسخ وتنشيط مستمر لحركة بيع الكتب، فالمكتبات على أنواعها زاداها الأساسي المؤلفات والمصنفات على تباين موضوعاتها واختلاف أنماطها وأعدادها، فهي تعتبر المرفق الحاضن لهذه الأوعية الفكرية، وأن هذه الأوعية ثمرة جهد المؤلفين والعلماء، وهذا نتيجة طبيعية لرقى الحياة

(100) - أبو الحسن بن عبد الله النباهي المالقي، تاريخ قضاة الأندلس، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط: 05، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983م، ص: 88.

(101) - ابن الأبار، التكملة، ج: 02، ص: 49، 50.

(102) - ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: 01، ص: 346؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج: 01، ص: 53.

أنداك بالأندلس خلال العصر الأموي في مختلف المجالات، والواقع أن هذه سلسلة مغلقة تقود كل حلقة منها بالضرورة إلى ما بعدها، فالمكتبات تظهر بانتشار حركة التأليف، وهذه الحركة تظهر نتيجة تطور الحياة الفكرية والعلمية، وهذه الأخيرة تتخذ من وفرة المصنفات والتأليف زاداها الرئيسي.

3 - المساهمة السياسية:

الهدوء والاستقرار السياسي:

يمكن الجزم أن فترات المهادنة السياسية هي دوما أكثر الفترات ملاءمة لازدهار الفكر وتطوره، ولعمل المؤثرات الثقافية الأكثر فعالية وخصبا، ووقائع التاريخ تثبت أن الأمويين حرصوا على توفير الاستقرار السياسي والاستتباب الأمني داخل ربوع دولتهم، وذلك عن طريق حماية وحدة الأندلس الداخلية، ولم يدخروا وسعا في حماية هذه الوحدة داخليا وخارجيا، ويرجع هذا أساسا إلى الوضع السياسي الأندلسي الذي كانت له واجهتان داخلية وخارجية، وفي كليهما كانت مخاطر التمزيق والتشتيت بل والاجتثاث تتهدد جماعة المسلمين ودولتهم. فبالنسبة للأول كانت شبه الجزيرة الإيبيرية مقسمة إلى دارين، دار الإسلام ودار الكفر أو دار الحرب، وهذا التجاور بينهما كان يفرض على المسلمين من جهة حالة استنفار دائم لمواجهة العدو الصليبي الرابض في الشمال والذي يتحين كل الفرص للانقضاض +

عليهم، وغالبا ما كانت تتحول إلى غزوات بالصوائف والشناقات، أو مواجهات في الحر والقر، دفعا في الأولى بالإسلام إلى دار الكفر وأرض العدو، ودفاعا في الثانية عن الإسلام في داره وأرضه، وفي هذه كان الأندلسيون ينهضون بفريضة الجهاد، مثلما كانوا ينازلون المنتزعين الذين يشقون عصا الطاعة والجماعة، أما بالنسبة للوجه الداخلي فيتمثل في مواجهة الأندلسيين في عصر بني أمية خاصة لمساعي العباسيين لفرض سلطتهم على بلاد الأندلس والأطماع التوسيعية

للفاطميين في الشمال الإفريقي فيما بعد، بالإضافة إلى ثورات العصابات المختلفة التي كانت منضوية تحت سلطان الأمويين بالأندلس⁽¹⁰³⁾.

تتضح هذه الحالة في عهد المؤسس عبد الرحمن الداخل، فبعدما سعى بكل جهد وطيلة أربع وثلاثين سنة للحفاظ على الوحدة السياسية للأندلس عن طريق إطفاء أثارة الخارجين عليه من كل جهات الأندلس، كان عليه في المقابل من فرض واقعية وجود الدولة الأموية الإسلامية في أوروبا أمام المد النصراني المتكالب عليها من كل جهة، وقد اهتدى عبد الرحمن الداخل الذي هادن شارلمان إمبراطور الفرنجة إلى هذا الأمر أمام الحالة التي كانت تفرضها الظروف، والمتمثلة في توطيد أركان البيت الأموي في الأندلس وتحقيق وحدة الأندلسيين حول الإمارة الأموية⁽¹⁰⁴⁾، لذلك لا يمكن أن نتحدث عن أي دور للأسرة الأموية في نهضة الأندلس الفكرية في هذه الفترة سوى ما يمكن أن يبدو لنا من جهود حثيثة بذلها عبد الرحمن الداخل لتوطيد أركان الدولة، والتي ستكون عاملا بارزا في تغيير سياسة خلفه نحو أعداء الخارج، وترك البلاد على حالة من الاستقرار السياسي سمحت بوضع اللبنة الأولى لنهضة الأندلس.

بتولي هشام بن عبد الرحمن عرش الأندلس عرفت الجبهة الشمالية سلسلة متتابعة من حملات الغزو ضد الدويلات النصرانية المتاخمة لحدود الدولة الأموية، حيث تخلى هشام عن سياسة المهادنة التي اتبعها والده مع نصارى الشمال نتيجة انشغاله بتوطيد أركان ملكه، ودرج منذ وصوله إلى السلطة إلى تنظيم حملات متتابعة على المناطق الشمالية، بعدما فرغ من القضاء على بعض حركات التمرد التي قامت في وجهه في الأندلس خاصة من طرف أخيه سليمان الذي اعتصم بمدينة طليطلة، وشملت حملاته جميع الأقاليم النصرانية الشمالية، وخاضت جيوشه معارك ضد منطقة ألبه والقلاع وجيليقية وجنوب فرنسا، واستمر هشام طيلة أيام حكمه يرسل الحملات العسكرية ضد نصارى الشمال⁽¹⁰⁵⁾، وعلى الرغم من أنها لم تحقق نتائج إقليمية ولم تدفع بحدود

(103) - حسن عبد الكريم الوراكلي، التراث الأندلسي ومسألة الوحدة، ضمن كتاب الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط: 01، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1996م، ق: 01، ص: 59.

(104) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 48 وما بعدها؛ المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 330 وما بعدها؛ نعنعي، المرجع السابق، ص: 158.

(105) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 62 وما بعدها؛ المقرئ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 337 وما بعدها.

أرض الإسلام شمالاً إلا أنها حققت المطلوب في حفظ الوجود الإسلامي بالمنطقة وصد الخطر الخارجي عن البلاد.

ودأب الأمويون في التصدي لكل محاولة لإثارة الفتنة وزعزعة الإستقرار بالمنطقة داخليا وخارجيا، حيث تبنى الحكم بن هشام سياسة الحزم والجد في هذا الأمر، خاصة أنه ورث عن أبيه وجده دولة كانت لا تزال حتى يوم اعتلائه للعرش بحاجة ماسة لتدعيم قواعدها وتقوية حدودها وتوحيد عناصر سكانها وتأكيد سلطاتها، إذ استهل عهده بالقضاء على حركات المعارضة الناشبة ضد سلطانه والتي اضطرت له لوقف كل نشاط على الصعيد الخارجي، والتي من أشهرها ثورات عميه سليمان وعبد الله البلنسي وثورات الرض التي تزعمها ثلة من فقهاء المالكية بقرطبة، وثورات مدينة طليطلة والثغر الأعلى، وبعد الانتهاء من الشأن الداخلي ركز جهوده لتأمين حدود دولته ووقف الجهود النصرانية في جيليقية وجنوب فرنسا أين تمكنت قوات الفرنج من السيطرة على برشلونة سنة 185هـ/801م، وسار بنفسه مرات عديدة لقيادة الحملات ضد الفرنج⁽¹⁰⁶⁾، ثم خطى خطوة عظيمة في تنظيم قوة مقاتلة ثابتة تدين بالولاء للأسرة الأموية دون غيرها من العصبية، بلغوا حسب بعض الروايات أكثر من خمسة آلاف كانوا أغلبهم من الصقالبة، واتخذت العدة والسلاح وربط الخيل على أبواب قصره⁽¹⁰⁷⁾.

نتيجة للجهود والمسعى الجبارة التي بذلها الأمراء الأمويون الثلاثة الأوائل في توطيد أركان الحكم والقضاء على أسباب الفتنة⁽¹⁰⁸⁾، ورث عبد الرحمن بن الحكم المعروف بعبد الرحمن الأوسط عرشا مستقرا وبلدا هادئا إلى حد ما إذا قيس بالاضطراب الذي عرفته إمارة أبيه خلال هيج الرض، أو الفوضى التي عرفتها الأندلس خلال فترات كثيرة من حكم حفيده الأمير عبد الله، حتى كان يقال لأيام حكمه أيام العروس لقرارها ودعتها وسكونها وطيبها وذلك لفخامة ملكه

(106) - المقرئ، المصدر نفسه، ج:01، ص:339 وما بعدها.

(107) - ابن عذارى، المصدر نفسه، ج:02، ص:69 وما بعدها ؛ مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص:113، 117 ؛ المقرئ، المصدر نفسه، ج:01، ص:338 وما بعدها.

(108) - ابن حيان، المقتبس، س:02، تج: مكى، ص:229.

واتساع مداخيل بيت المال ووفرة الأموال⁽¹⁰⁹⁾، بينما أشاد ابن عذارى بالرخاء والاستقرار الذي امتاز به عهده قائلاً: (لم يلق المسلمون معه بؤساً ولم يروا في مدته يوماً عبوساً)⁽¹¹⁰⁾.

ورافق هذا الاستقرار مظاهر الأبهة الخلافية التي أخذت الدولة الأموية في الأندلس تتزين بها والتي كانت معروفة لدى خلفاء المشرق، حيث نافس عبد الرحمن الأوسط العباسيين في هذا، فقام بتشييد القصور والمساجد واستجلب إلى الأندلس نفائس الكتب والتحف من الجواهر والمتاع وغيرها⁽¹¹¹⁾، وقد أتاح هذا الهدوء وانتظام الأمور ووفرة الأموال للأندلسيين فرصة الاهتمام بجلب مظاهر الرقي الفكري والمادي والاهتمام بالجانب الحضاري⁽¹¹²⁾.

ولما تجلت بوضوح معالم النهضة الفكرية الأندلسية في عهد الحكم المستنصر، فعلل ذلك يعود قطعاً لكون أيام حكم والده عبد الرحمن الناصر الطويلة وما رافقها من منجزات عسكرية قد أعطت الأندلس مرحلة طويلة من السلام والرخاء امتدت حتى ما بعد نهاية فترة حكم الحكم المستنصر⁽¹¹³⁾.

ذلك أن امتداد أيام حكم عبد الرحمن الناصر واستطالتها على مدى خمسين عاماً، وما رافق ذلك من قضاء على الفتن الداخلية وإعادة وحدة الأندلس في سنوات حكمه الأولى، ثم ما حققه من انتصارات عسكرية خارجية أوقفت حركات نصارى الشمال أعطى الأندلس فترة طويلة من الأمن والاستقرار السياسي أثمرت نخضة اقتصادية وعمرانية وفكرية بالخصوص ما عرفت لها الأندلس مثيلاً قبل ذلك⁽¹¹⁴⁾، حيث ازدهرت في هذه الفترة التجارة والصناعة والزراعة كما لم يحصل في أي وقت منذ قامت دولة الإسلام في الأندلس، وكان لذلك نتائج إيجابية على خزانة الدولة في قرطبة، فعمرت بالأموال وأصبحت واردات الدولة لا يحصيها ديوان لكثرتها وتنوعها،

(109) - المصدر نفسه، ص: 290، 292، 298.

(110) - ابن عذارى، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 91.

(111) - ابن عذارى، المصدر السابق، ج: 02، ص: 91.

(112) - مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص: 122؛ حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، ط: 01، القاهرة: دار الرشد، 1997م، ص: 42.

(113) - ننعني، المرجع السابق، ص: 408.

(114) - مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص: 136؛ ابن عذارى، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 158 وما بعدها؛ المقري،

المصدر السابق، ج: 01، ص: 363، 364.

وقد أفاد الجانب الفكري من هذا الرخاء العام الذي كانت عليه الدولة حيث دخلت الأندلس عصرها الزاهي الذي جعلها مهيأة لاستضافة ورعاية تلك النهضة العلمية الباهرة التي ستعرفها الأندلس خلال عهد الحكم المستنصر الذي ورث عن أبيه ملكا ثابت الأركان مستقر الدعائم، وخزائن كانت تزخر بما فيها من أموال ضخمة⁽¹¹⁵⁾.

لذلك يمكن القول أن الاستقرار السياسي الذي عرفته الأندلس في عهد الدولة الأموية راجع للجهود المتواصلة المبذولة من طرف الأمويين الذين درجوا منذ عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل على سياسة نقل المعارك إلى أرض النصراني في الشمال، والتي تكللت دوما بمهادنات طويلة الأمد فرضها التفوق الإسلامي على نظيره النصراني وما نتج عنها من فترات سلام وهدوء، بالإضافة إلى ما كانت تدره على خزينة الدولة من غنائم وأموال، أتاحت للأندلسيين عامة حكومة وشعبا التنفرغ لواجهات أخرى غير الواجهة الحربية كالعمران والعلوم.

(115) - ننعني، المرجع نفسه، ص: 377، 378، 386؛ دياب، المرجع السابق، ص: 110.

خاتمة:

من خلال العرض السابق يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:

عمل الأمراء الأمويون على تطوير الأندلس والرقى بها وذلك بتشجيع العلم والعلماء على اختلاف قدرات كل أمير عن غيره، وملاءمة ظروف البلاد الداخلية والخارجية في عصره، وكلهم خطى خطوات ثابتة نحو تقدم علمي واسع المجالات.

تجلت المساهمة الفردية للأسرة الأموية في النشأة العلمية التي تلقاها الأمراء والخلفاء والتي جعلتهم في مصاف علماء عصرهم، بل فاق بعضهم حتى وضعوا مصنفات اعتبرت مرجعا فيما كتبوا عنه، كما تصدى بعضهم للإفراء والتدريس، وتحلق حولهم جموع طلبة العلم للأخذ عنهم.

برزت المساهمة الأموية كسلطة سياسية حاكمة في جانبين أساسيين أولها مادي تمثل في تشجيع الإنتاج العلمي عن طريق استقدام العلماء للتدريس وإغداق العطايا المالية للمؤلفين والمصنفين، وتوفير مراكز العلم عن طريق المساهمة المباشرة في بناء المساجد التي كانت تعتبر الصرح العلمي الأساسي في ذلك العصر، بالإضافة إلى بناء المكتاتيب التي اشتهرت منذ القرن الرابع للهجرة بالأندلس كمراكز لتعليم النشأ الصغير والإنفاق على معلميههم ومؤيديهم، وفي هذا الصدد برز الوقف كعامل مهم ساهم في توفير تمويل مادي قار لهذه الفئة.

كما برزت المساهمة المادية الأموية في إنشاء مكتبة قرطبة العظيمة التي اشتهرت بمجموع مؤلفاتها البالغ عددها أربع مائة ألف مصنف في جميع فنون العلم والمعرفة، هذه المكتبة التي ظهرت نواتها الأولى منذ عهد عبد الرحمن الأوسط واستمرت في النمو في عهود خلفه نتيجة الاهتمام البالغ الذي أولوه لها، حيث كان الأمويون يحرصون على حيازة المصنفات والكتب مهما بلغ ثمنها وبعد صاحبها، وبعثوا رجالهم إلى أقطار العالم الإسلامي لتنسم أخبار المصنفين وشراء ما يمكن شراؤه منها حتى بلغت أوجها في عهد الحكم المستنصر.

والثانية تمثلت في توفير استقرار سياسي وهدوء اجتماعي مناسب لتبلور التيارات الفكرية وازدهارها، وذلك من خلال سياسة حرية تواصلت طيلة العصر الأموي كان الهدف من خلالها حماية حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات نصارى الشمال والقضاء على الفتن الداخلية، ما نتج عنه توجه الأندلسيين إلى الاشتغال بالبناء الحضاري وأخذوا يلتمسون الوسائل في ذلك.

لذلك لا نعيد عن الصواب إذا قلنا أن الازدهار الحضاري والتقدم العلمي الذي عرفته الأندلس خلال عصر الطوائف لم يكن وليد الساعة، ولا ناتجا عن الظروف السياسية التي كانت عليها المنطقة في تلك الفترة، ولم يأت فجأة إلى الوجود بل له رواسب وأصول ثابتة تعود إلى الفترة الأموية أين تميزت فيها الأندلس بوحدة سياسية واستقرار مكنا من تلك الطفرة فيما بعد.

المصادر والمراجع:

- 1) ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم)، عيون الإنباء في طبقات الأطباء، (د.ط)، تح: نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت).
- 2) ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، التكملة لكتاب الصلة، ط:01، تح: بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، 2011م.
- 3) ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، الحلة السيرة، ط:02، تح: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، 1985م.
- 4) البشري (سعد عبد الله صالح)، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، الرياض: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1997م.
- 5) الحميدي (محمد بن أبي نصر فتوح)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
- 6) الحشني (محمد بن الحارث)، قضاة قرطبة، ط:02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب العربي بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، 1989م.
- 7) الحشني (محمد بن حارث)، أخبار الفقهاء والمحدثين، (د.ط)، تح: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991م.
- 8) ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام فيمن بوع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، ق: 02، تح: ليفي بروفنصال، ط: 02، بيروت: دار المكشوف، 1956م.
- 9) ابن الدلائي (أحمد بن عمر)، نصوص عن الأندلس، (د.ط)، تح: عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، (د.ت).
- 10) الزبيدي (محمد بن الحسن)، طبقات النحويين واللغويين، ط:02، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- 11) الشافعي (حامد)، الكتب والمكتبات في الأندلس، ط: 01، القاهرة: دار قباء، 1998م.
- 12) الشنتيني (ابن بسام)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، (د.ط)، بيروت: دار الثقافة، 1997م.

- 13) الغساني الأندلسي (محمد)، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحرير وتقديم: نوري الجراح، ط: 01، الإمارات العربية المتحدة: دار السويدية للنشر والتوزيع، 2002م.
- 14) ابن الفرضي (عبد الله بن محمد)، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ط: 02، تح: عزت العطار الحسيني، القاهرة: مطبعة المدني، 1988م.
- 15) ابن القوطية (محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، ط: 02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني بيروت، 1989م.
- 16) المراكشي (ابن عذارى)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط: 02، تح: ج.س كولان وليفي بروفينصال، بيروت: دار الثقافة، 1980م.
- 17) المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (د.ط)، تح: محمد العريان، القاهرة: لجنة إحياء التراث العربي، (د.ت).
- 18) المقرئ (أحمد بن محمد)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (د.ط)، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1988م.
- 19) النباهي المالقي (أبو الحسن بن عبد الله)، تاريخ قضاة الأندلس، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط: 05، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1983م.
- 20) الوراقلي (حسن عبد الكريم)، التراث الأندلسي ومسألة الوحدة، ضمن كتاب الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط: 01، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1996م.
- 21) اليعقوبي (أحمد بن إسحق)، البلدان، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).
- 22) ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك)، الصلة، ط: 01، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني بيروت، 1989م.
- 23) ابن جلجل (سليمان بن حسان)، طبقات الأطباء والحكماء، ط: 02، تح: فؤاد سيد، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م.
- 24) ابن حزم (علي بن سعيد)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، ط: 01، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016م.
- 25) ابن حزم (علي بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، تح: ليفي بروفينسال، مصر: دار المعارف، (د.ت).
- 26) ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم)، صورة الأرض، (د.ط)، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992م.
- 27) ابن حيان (حيان بن خلف)، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، (د.ط)، تح: عبد الرحمن علي حجي، بيروت: دار الثقافة، 1965م.
- 28) ابن حيان (حيان بن خلف)، السفر الثاني من كتاب المقتبس، ط: 01، تح: محمود علي مكّي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003م، س: 02.
- 29) ابن حيان (حيان بن خلف)، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تح: محمود علي مكّي، (د.ط)، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1994م.

مساهمة الأسرة الأموية في النهضة العلمية والفكرية بالأندلس

(138-422هـ/755-1030م)

- 30) ابن خاقان (الفتح بن محمد)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ط: 01، تح: محمد علي شوابكة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م.
- 31) خلاف (محمد عبد الوهاب)، وثائق في شؤون العمران في الأندلس المساجد والدور، ط: 01، القاهرة: المركز العربي الدولي للإعلام، 1983م.
- 32) ابن خلدون (عبد الرحمن)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (د.ط)، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2000م.
- 33) ريبزا (خوليان)، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة: معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مج: 05، ماي 1959م، ج: 01.
- 34) ريبيرا (خوليان)، التربية الإسلامية في الأندلس، تر: الطاهر أحمد مكي، ط: 02، القاهرة: دار المعارف، 1994م.
- 35) سالم (السيد عبد العزيز)، المساجد والقصور في الأندلس، (د.ت)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت).
- 36) ابن سعيد (علي بن موسى)، المغرب في حلى المغرب، ط: 04، تح: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- 37) ابن صاعد الأندلسي (صاعد بن أحمد)، طبقات الأمم، تح: لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912م.
- 38) ابن فرحون (إبراهيم بن علي)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، (د.ط)، تح: محمد الأحمد أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، (د.ت).
- 39) مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، ط: 02، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالإشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، 1989م.
- 40) مؤنس (حسين)، المساجد، (د.ط)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م.
- 41) نعنعي (عبد المجيد)، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، (د.ط)، بيروت: دار النهضة العربية، (د.ت).
- 42) هونكة (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، ط: 08، تر: فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت: دار الجيل بالإشتراك مع دار الآفاق الجديدة ببيروت، 1993م.